

البـ _____ دوية

بقلم الأديب محمد افندی السيد

جلست وصديقي (ع) تحت الشجرة تتحدث . وصديقي (ع) في حلو الحديث دقيق التعبير رقيق الشعور — ولقد تحس وهو يتحدث إليك كأنك تشرف على ملعب تمثل فيه الحوادث التي يقصها

أطرق صديقي إطراقة... ثم قال آه! سنوات خمس يا عزيزي منذ افترقنا للمرة الأخيرة... ثم استطرد فقال: ولطالما ذكرتكَ وذكرت هذه الشجرة وهذا المكان بما يذكر محب حبيباً غاب عنه وبقيت لديه ذكراه ماثلة لا تفارقه لحظة... على أن هناك يا عزيزي... نعم هناك في الريف حياة أخرى حياة دعة وسكون، حياة تشبه حياة الملائكة من بعض نواحيها

ففي الريف ... لا تشهد اعتصار العالم تحت عجلة التكاليف الثقيلة ولكن ثم أنواع من السذاجة والبساطة في كل شيء . فقلت ولكن خبرني يا عزيزي ألا تزال عند رأيك الأول من أن العفاف لدى المرأة حال ضرورة فقط قد تلزمها بعض الأحيان لظروف خاصة ؟

قال صاحبي نعم لقد كان هذا رأيي ، وكان رأيك أيضا وأنت تدرك كيف أننا قررنا هذا الرأي تحت ضغط شديد من تيار مدنية هذا العصر حيث جرفها سيلها - فأدلت إلى الرذيلة بدلوها وتورطنا فيما يتورط فيه الشباب عادة من حماة الفساد وجنون الشهوة

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للبرء أى مفسده
قلت ذلك حق أى حق . ولكن أليست المرأة هى المرأة هنا وهناك ،
وفي كل عصر من عصور التاريخ ؟

قال بلي ! إن المرأة هي المرأة منذ هبط آدم وجواء إلى هذا العالم . على أن النظر قد يختلف في تكيف الوقائع وتقرير التاريخ . ومن ثم تدرك اختلاف الناس في تقرير مصائر الأمور . وهذا عندي هو السر في أن تختلف مذاهب الناس في فهم شيء واحد . ولقد علمت بالاستقراء وبالتجربة العملية ، أن الطاهر والعفاف وما إلى ذلك من ألوان الفضيلة قد تكون عند المرأة حقائق ثابتة لا مجرد خيال أو وهم . وأنت تدرك من القصة الآتية كيف يكون ذلك : منذ فبراير سنة ١٩٢٣ صدر أمر الحكومة بنقلى للأقاليم ، فما كان أشد وقع هذا النبأ المؤلم على نفسى الضعيفة المنهوكة . حقا لقد كان أسوأ الأنباء . وأقبلها ، تعرف ذلك جيدا . وتعرف سره ، أليس كذلك ؟

قلت بلي أعرف هذا ولا أنساه .

قال : ولقد سافرت لمركزى الجديد بعدمطل وتسويق . ولشد ما أنظمت الدنيا في وجهى وضاعت على الأرض بما رحبت ، فلا ملهى ولا ملعب ولا مآوئهم الناس في المدينة عادة لقصد السلوى وقتل الوقت وعمال الحكومة في القرى إليهم أعناق الناس مشرّبة ترمقهم أنظار الخاص والعام وإذا شئت أن تعرف أكثر من ذلك فهم ضمن نطاق من أعين الجميع ، إذ الكل عليهم رقباء . بل الكل ألسنة نقد حداد !

ومن شاء منهم أن يحتفظ بما لمركزه من هبة ووقار فعليه أن يكون ناسكا ليس غير

تحت تأثير هذه العوامل أجمع ، أكرهت على أن أغير مجرى الأمور في جميع أسباب معيشتى من كل الوجوه ، ولقد بدا لى الوقت طويلا ثقيلا ، فكيف أقطعه ؟ أقتل الزمن كما يقتله إخوانى من الذهاب للعمل ثم العودة للمنزل وتناول الطعام والذهاب لمشرب القهوة وإضاعة الوقت في التحدث إلى الإخوان وفى لعب النرد أو الورق أو الشطرنج الخ . . . ؟

لا ، إنى لا أميل إلى شيء من ذلك

إذن ماذا أدبر لنفسى ؟

أحب الخيل من كل قلبي

ابتعت مهرالم يشارف بعد ريعه الرابع ، له محاسن الخيل مجتمعة ، وفيه ظرف ودلال و (قزحة) . ولو أن الله اقتضت إرادته أن يبعث امرأ القيس مرة أخرى ، لا سَمعنا فيه خيرا من قوله :

له أبطالا ظي وساقا نعامه وإرخاء سرحان وتقريب تنفل

مكر مفر مقبل مدبر معاً بكلمود صخر حطه السيل من عل

وبهذه الوسيلة وجدت سلواى ، ولشد ما استحالت كل مشاعرى وإحساساتى إلى أمر واحد هو تذليل هذا المهر والعناية بجميع شؤونه حتى ما كنت أترك لحادى أمر خدمته وحده ، بل كنت أتولاها معه وكثيرا ما قت بها بنفسى . ولقد مللت الجرى فى الطريق المعبدة ومسابقة القطار (القادم من المنصورة)

فلطالما سبقت القطار . ولطالما أدركت القطار ! ! ! !

ولست أعرف كيف أصف لك ما كان يشملى من سرور . ويعرونى من نشوة وطرب . حتى لقد ازددت كلفا به إلى درجة مقلقة فنسيت كل شىء إلا هو وقبيل الغروب فى ذات يوم سلكت طريقا جديدة . ثم واصلت السير فى طريق أخرى غير معبدة حتى وصلت إلى التل . ولعل ذلك التل بقايا مدينة قديمة أدرکها الفناء منذ أجيال عديدة .

وفى سفح التل من الشمال كان قطيع من الضأن يرعى الأعشاب بل الأشواك المبعثرة هنا وهناك . إذا فليكن مسيرى فى غير اتجاه هذا (الجيش) حتى لا يعكر على صفاء نزهتى ، فبدأت أسير الهويناء فى وسط التل تماما من الشمال إلى الجنوب وماعتمت حتى رأيت جموع الضأن وما يتبعها عادة من حمر وكلاب وبنات حواء . قد بدأت تندفق من الشمال إلى الجنوب وبسرعة البرق أدركتنى ثم أخذت على طريقى فعلا . وكانت طريقا صعبة ملائى بقطع من الأحجار الصغيرة المبعثرة فى جميع أنحاء التل .

ولقد تولاني الذهول حين رأيت تلك البدوية في ثيابها الفضفاضة وإزارها العريض ، وخفها المكشوف ، تتقدم القطيع تحدوه وتناديه بالفاظ عربية بلهجة غير مفهومة وغير واضحة .

بدالى أن أداعب (البدوية) هذه التي اضطرتني إلى الوقوف على الجبل والاهتمام بما عساها تريد من هذه الحركة الحربية ؟

ماذا يستثير اهتمام الجلف من أهل البداوة ؟ لا ريب في أنها ساذجة إذا بدأتها بالكلام قد تسمى إلى : إذن فلتكلم هي :

تركتها وشأنها تعاني جمع الضأن حول نقطة الارتكاز حول الصخرة . الصخرة الوثنية ذات النقوش القديمة . ثم لويت عنان مهري فدار حول الصخرة مرات وما كدت أفرغ حتى بدت عليها علامم الدهشة ودنت مني وتكلمت فلم أجاب فاقتربت وتكلمت وأجبت

ولشد ما أدهشني واستثار كوامن نفسي وهز عواطفني ما بدا في حديث هذه البدوية من رخامة صوت ، ولين حركات . في دقة تعبير ، وصدق ملاحظة ، وظللت هكذا مبهوتا بل متدها . وكنت فيما مضى أعشق لونا من الأوانس وكان جلة أصدقائي يعيرون على مذهبي هذا كأن الله قد خلق الناس جميعا من طبيعة واحدة .

وكأن ليس ثمة فارق بين أهوية أهل الأرض وأمزجتهم وكأن يجب عليهم أن يكونوا من صعيد واحد في التفكير وفي النظر إلى أوجه العالم المختلفة وحتى في العاطفة وفي الحب أيضا .

كأن هذه السيقان السمراء الدقيقة : وهذا الوجه النحاسي وهذه العيون النجل ذوات الحدقات الواسعة البراقة ، وهذا الجرم الدقيق ، والأديم الرقيق لا تستحق إعجاب المعجبين ولا عشق العاشقين ؟ لست أكتمك : لقد قننت لمجرد النظرات الأولى وذلك الحديث المشجي

إذن تتحدث وإذن يطول الحديث . فالموقف دقيق فيه حلاوة الواقع ومرارة المانع

أخذت أستشير ماسبق من الحوادث . لعل أوفق لاقتناص هذه العصفورة .
و كنت كلما تقدمت إلى الأمام خطوة زحزحتني للخلف خطوات . وفي اللحظة
الآخيرة . وقد يئست ، إذ ابصاحتي تنهزم . وإذن انتهينا ووقعت « المصارى (١) »
فعلا .

أشارت إلى بالانحدار إلى بطن الوادي شرقا حيث أجد مكانا صالحا للقيانا .
لم أشك لحظة منذ تهأت أسباب الظفر في صدق صاحبتى فأخذت طريقى
إلى الشرق واتجهت هى نحو الغرب . ومع أننا سرنا فى اتجاهين متضادين فأنى لم
أدرك تماما ما دبر لى إلا حين انتهيت إلى آخر التل شرقا وانتهت هى إلى نهايته
غربا ثم أخذت طريقها للقرية المجاورة واختفت مع قرص الشمس الحائل تحت
الآفاق : الآفاق البعيد : الآن وقد هجم الظلام وأوحش المكان فلا سبيل للبقاء ،
يممت نحو المدينة وأطلقت لمهرى العنان وعدت أدراجى

قلت ألم تعد لهذا المكان مرة أخرى ؟

قال بلى عدت مرارا

وهل رأيت صاحبتك ؟

نعم رأيتها

وماذا قالت ؟

لم تقل شيئا وإنما ضحكت ضحكة الأشفاق والسخرية .

محمد السيد

(١) النقود . كما يعبر بذلك أهل الشام والبادية أيضا

مطبعة الجمل بمصر

مستعدة لطبع جميع ما يطلب منها من الكتب والمجلات

على اختلاف أنواعها مع العناية وحفظ المواعيد

